دلالات العنوان في المتن الروائي الجزائري

فريد حليمي

جامعة منتوري ⋄ قسنطينة ⋄ الجزائر

ملخص

تسعى هذه الدراسة لرصد ظاهرة العنونة، باعتبارها عتبة نصية وعلامة لسانية في الرواية الجزائرية، ولتبيين مدى شعرية هذه العناوين، وما لها من علاقة وطيدة بالراهن السياسي الذي تمخضت عنه، حيث إن هذه الدراسة ترصد العناوين الروائية، ابتداء بمرحلة ما بعد الاستقلال وانتهاء بسنة ألفين. وبما أن هذه الفترة تحمل تحولات طالت الشكل الروائي ومضمونه، فقد قسمناها بدورها إلى مرحلتين؛ الأولى وتبتدئ من فترة ما بعد الاستقلال انتهاء بسنة 1986، أما الثانية فتبتدئ من سنة 1987 وصولا إلى سنة 2000. وسنحاول جاهدين الوقوف عند خصائص كل مرحلة كاشفين عن علاقة البعد السياسي بالنمط العناويني.

Abstract

This article seeks to study titling as a textual threshold and a linguistic sign in the Algerian novel and to show how poetic the titles are, and their close relationship with the actual political context which gave rise to them. The study examines titles of novels from the post-independence period up to the year 2000, divided into two phases: from the early 1960s to 1986, and from 1987 to 2000, with the major aim of relating the titles to the political context.

تمهيد:

يعتبر العنوان عتبة نصية تفتح أفق القراءة، وتزيد من لذة الاكتشاف ومن شبق البحث فالعنوان على اختلاف أنماطه، وتنوّع دلالاته ومحدودية ألفاظه علامة لسانية، وشفرة أدبية تخفي أكثر ممّا تبدي، فهو نص يجعل من التناص آلية تقرّبه من النص الذي يسميه، ومن التأويل مفتاحا لولوج معانيه، لذلك فالعنوان إبداع ثان، وخطاب مقصود لا اعتباطية فيه، ومنه فعلى العنوان أن يكون علامة لسانية تطفح بالشعرية والجمال، وعلى هذا الأساس تسعى هذه الدراسة للبحث في هذه العلامة اللسانية وتبيين مدى شعريّتها في الرواية الجزائرية؛ هذه الرواية التي احتضنت الحداثة بكل مرونة وتمثّلت الجمال الفني بشتى تمظهراته، فهل كان العنوان فيها أدبيا مرتبطا بقصدية ما؟ وما مدى تمثّله للأنماط العنوانية؟ وهل للراهن السياسي سلطة في تأسيس هذه الأنماط وبنائها؟

- العنونة في الرواية الجزائرية :

للحديث عن العنوان في الرواية الجزائرية لابد من الحديث عن التحولات التي شهدتها هذه الرواية لأن العنوان متصل بمضمون الرواية، وهذه التحولات رهينة ظروف اجتماعية، سياسية فكرية وإيديولوجية، لذلك نقسم العناوين إلى مرحلتين:

- ✓ عناوين روائية من ما بعد الاستقلال حتى 1986.
- ✓ عناوين روائية من 1987 حتى 2000.

1. العناوين الروائية من "ما بعد الاستقلال حتى 1986"

أ/عناوين تدل على الأسماء: (أعلام أو حيوانات):

"اللاز" للطاهر وطار (1972)، و"حورية" لعبد الحميد عبد المجيد، و"عرس بغل" للطاهر وطار، و"ناموسة" لشريف شناتلية، (1982)، و"الجازية والدراويش" لابن هدوقة، (1983)، و"مصرع أحلام مريم الوديعة"، لواسيني الأعرج، (1984)، و"رائحة الكلب" لجيلالي خلاص، (1985)، و"الخنازير" لعبد الملك مرتاض، (1985)، و"حمائم الشفق" لجيلالي خلاص، (1986)، و"ما تبقى من سيرة لخضر حمروش" لواسيني الأعرج.

ب/عناوين تدل على الزمن:

"نهاية الأمس" لابن هدوقة، (1975)، و"العشق والموت في الزمن الحراشي" للطاهر وطار، (1980)، "طيور في الظهيرة" لـمرزاق بقطاش، و"حين يبرعم الرفض" لإدريس بوذيبة، (1982). "زمن النمرود" للحبيب السائح، (1985)، و"قبل الزلزال" لعلاوة بوجادي، و"هموم الزمن الفلاقي" لـمحمد مفلاح، (1986)، و"زمن القلب" لمحمد العالي عرعار، (1988)، و"ذاكرة الجنون والانتحار" لحميدة العياشي.

ج/عناوين تدل على مكان:

"الحوات والقصر" للطاهر وطار، و"الإقامة في المناطق الممنوعة" لمحمود بن مريومة، (1986)، و"بيت الحمراء" لـمحمد مفلاح، (1986)، و"صوت الكهف" لـعبد الملك مرتاض، (1986)، و"على جبال الظهرة" لـمحمد ساري.

د/ عناوين تدل على حدث أو وصف:

"الزلزال" للطاهر وطار، (1972)، و"الشمس تشرق على الجميع" لإسماعيل غموقات، و"الطموح" لمحمد العالي عرعار، و"جغرافية الأجسام المحروقة" لواسيني الأعرج، (1979)، و"بان الصبح" لابن هدوقة، (1980)، و"الطريق الدامية" لأحمد الخطيب، (1982)، و"المؤامرة" لمحمد مصايف، (1983)، و"المضطهدون" للهاشمي سعدون، (1985)، و"الشياطين" لاسماعيل غموقات"، (1986).

2. العناوين الروائية من "1987 إلى 2000"

أ/عناوين تدل على أسماء: (أعلام أو حيوانات):

"ابن السكران" لـمحمد نسيب، و"عزوز الكابران" لـمرزاق بقطاش، و"لونجة والغول" لـزهور ونيسي، و"سيدة المقام" لواسيني الأعرج، (1995)، و"خويا دحمان" لـجيلالي خلاص، و"دم الغزال" لمرزاق بقطاش، (2000)، و"الفراشات والغيلان" لعزالدين جلاوجي.

ب/عناوين تدل على زمان:

"فاجعة الليلة السابعة بعد الألف" لواسيني الأعرج، و"غدا يوم جديد" لابن هدوقة، (1993)، و"ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي، (1993)، و"ذاكرة الماء" لواسيني الأعرج، (1997)، و"زهور الأزمنة المتوحشة" لجيلالي خلاص، (1998).

ج/عناوين تدل على المكان:

"عين الحجر" لعلاوة بوجادي، و"صلاة في الجحيم" لحفناوي زاغز، و"خط الاستواء" للأزهر عطية، (1989)، و"ضياع في عرض البحر" لحفناوي زاغز، (1990)، و"الفجوة" لخضاري زاهر، و"بحر بلا نوارس" لجيلالي خلاص، (1998)، و"تيميمون" لبوجدرة، (1994)، و"الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" للطاهر وطار، (1999)، و"الحب في المناطق المحرمة" لجيلالي خلاص، (2000)، و"بيت من جماجم" لشهرزاد زاغر، (2000)، و"أرخبيل الذباب" لبشير مفتي، (2000).

-عناوين تدل على حدث أو وصف:

"المصائد" لإسماعيل غموقات، و"وأخيرا تتلألأ الشمس" لمحمد مرتاض، و"صفقة زلمات" لعبد الحميد تابليت، (1989)، و"تجربة في العشق" للطاهر وطار، (1989)، "ضمير الغائب" لواسيني الأعرج، "الفخر" لإبراهيم سعدي، (1990)، و"فوضى الأشياء" لرشيد بوجدرة، (1990)، و"الغرباء" لرابح خدوسي، (1990)، و"الشمعة والدهاليز" للطاهر وطار، (1995)، و"سفر الحب" لجيلالي خلاص، و "المراسيم والجنائز" لبشير مفتي، (1998)، و"سرادق الحلم والفجيعة" لعز الدين جلاوجي، (2000).

يمكن لنا من خلال هذا الرصد العناويني أن نعقد مقارنة بين المرحلتين من حيث توظيفها للأنماط العنوانية

المرحلة	عناوين الأسماء	عناوين الزمان	عناوين المكان	عناوين الحدث أو الوصف
ما بعد الاستقلال حتى 1986	10	09	05	09
من 1987 إلى 2000	07	05	11	12

من خلال هدا الجدول يتبين لنا أن العناوين على اختلاف دلالاتها متقاربة في توظيفها،كما أنها لازالت تسير على وتيرة واحدة، وإن كان هذا الرصد العنواني للمرحلتين لا يشمل كل العناوين، لكن ما قدم يمثل جزءا كبيرا منها، لذلك يمكن الحكم من خلاله.

إن الملاحظ على هذه العناوين تباين دلالتها، فهل لهذا التباين قصدية ما؟ أم هو اختيار اعتباطي لا مبرر له؟

للإجابة عن هذا السؤال لابد من معرفة كل مرحلة على حدة، ومعرفة ما طرأ عليها من تغييرات فكرية وإيديولوجية ومعرفة الظروف السياسية والاقتصادية.

المرحلة الأولى (ما بعد الاستقلال حتى 1986):

بعد الثورة وجدت الجزائر نفسها في حياة جديدة سمتها الحرية، والمسؤولية، وبقي الناس يعيشون الأمجاد؛ أمجاد الثورة، ويتغنون ببطولاتها، فكان لزاما على الروائي أن يجعل من هذه الثورة مادة روائية، فنحا الروائيون هذا الاتجاه وكتبوا عن الثورة والثوار، فكانت الثورة تاريخا وزمانا وحدثا مليئا بالصفات، فنجد محمد مصايف،محمد مفلاح ومرزاق بقطاش من خلال رواياتهم "المؤامرة"، "هموم الزمن الفلاقي" و"البزاة" – على الترتيب – يجسدون الثورة المسلحة، فكل كاتب منهم " يعمد في نصه إلى تصوير المعاناة التي يعيشها البطل أو المواطن الجزائري بصفة عامة، القمع، التشرد، الجوع، الاستغلال، الحقد العنصري وغيرها من الممارسات التي عرف بها النظام الاستعماري»[1] لكن ما يهمنا هنا هو عناوين هذه الروايات.

إن عنوان مصايف إيحائي يدل على وصف يتمثل في المؤامرة ضد الشعب المستعمَر، ومثله عنوان محمد مفلاح ذو النمط الدال على الزمن، فهو عنوان صريح مباشر ينطق بمضمونه، إنه هموم الزمن الفلاقي، وعليه فالعناوين من حيث أنماطها مبررة حتى الآن فالثورة زمن وفترة من التاريخ مليئة بالأحداث، فالعنوان ذو النمط الدال على الزمن يجسد زمن الثورة المرير والدال على وصف أو حدث يصف عقلية المستعمر أو ما حدث للشعب ثم ما فتيء أن تغير مفهوم الثورة – الثورة المسلحة – وساد فكر الإصلاح

والتغيير زمان "الهواري بومدين" فظهرت الإيديولوجية الاشتراكية وقد «سيطرت الإيديولوجية الاشتراكية على فئة عريضة من المثقفين من مختلف التخصصات سواء منهم الأدباء أو الذين اشتغلوا في ميدان المعرفة من علم الاجتماع وفلسفة وتاريخ، فعكف الكل على إظهار القيم الاشتراكية في المجتمع الجزائري»[2] و كغيرهم سلك الروائيون هذا المسلك فظهرت الرواية الإيديولوجية مع بداية السبعينيات، والاشتراكية ناهيك عن كونها فكرا وإيديولوجية فهي حدث ونمط حياة يعيشه الناس، ومن الروايات الإيديولوجية "اللاز" للطاهر وطار، "ما تبقى من سيرة لخضر حمروش" لواسيني الأعرج، و"التفكك" لبوجدرة و"صهيل الجسد" لأمين الزاوي، و"الأكواخ تحترق" لمحمد زتيلي، و"الشمس تشرق على الجميع" لاسماعيل غموقات و"حين يبرعم الرفض" لإدريس بوذيبة.[3] فالملاحظ هنا أن عناوين هذه الفترة ذات التوجه الإيديولوجي معللة حيث نلاحظ هيمنة العناوين الدالة على حدث أو وصف، فأربعة عناوين تدل على حدث، و عنوانان يدلان على اسم، وعنوان واحد يدل على الزمن في هذه النماذج التي قدمنا، فلماذا كثر استعمال العناوين الدالة على حدث أو وصف؟

مادامت الإيديولوجية الاشتراكية هي حدث ونمط حياة ودعوة إلى الإصلاح والمساواة، فخير نمط ينتقيه الروائي لروايته هو النمط الدال على حدث أو وصف، فـ "التفكك" تفكك وتداخل الراهن و"الأكواخ تحترق" وصف لمرحلة جديدة؛ إنها مرحلة الإصلاح الفلاحي والثورة الزراعية، والنهوض بالفلاح الذي كان يعيش في أكواخ بالية لا تقيه حرا، ولا قرا فأحرقت الأكواخ واستبدلت بمباني، و"الشمس تشرق على الجميع" عنوان يمكن وسمه بالبلاغي فهو كناية عن المساواة الناجمة عن الثورات الثلاث، الزراعية والصناعية والثقافية، فإشراق الشمس على الناس كلهم صفة ملازمة للمساواة في الاستفادة من نورها فنستنتج إذا أن توظيف العناوين الدالة على حدث أو وصف في هذه الفترة الدالة على الرواية الإيديولوجية معلل لا اعتباطية فيه.

بعد هذه الفترة عرف الراهن السياسي والاجتماعي والثقافي تطورا لأن الاشتراكية لم تبق على ما قامت عليه من نشر للمساواة والاستفادة المشتركة بل انقلب

حالها وصارت تكيل بمكيالين فكثير ممّن "تجمعت لديهم السلطة الإدارية القاهرة التي يتخذون ضمنها قرارات غير قابلة للطعن وطبيعة القطاع الذي يسمح بمثل هذا التصرف، في غياب الرقابة السياسية، ورقابة الضمير، فعوض أن يقسم ثروة البلاد بالعدل مثلما تنادي به الخطب الرسمية تصرف أصحاب الحل والربط، كأنها ملكهم الخاص،"[4] فظهرت الحقرة والتهميش والتمييز والاستفادة الفردية، فضاق الناس ذرعا بهذا التوجه وبهذا الحال، فقال الروائيون "زمن النمرود" للحبيب السايح، "العشق الموت في الزمن الحراشي" "الحوات والقصر" للطاهر وطار؛ "الجازية والدراويش" لابن هدوقة، "الخنازير" لعبد المالك مرتاض، "المضطهدون" للهاشمي سعيداني؛ "الشياطين" لاسماعيل غموقات. فالملاحظ على هذه العناوين أنها استفادت من الأنماط كلها لأن الوضع الراهن يعاني مكانه وزمانه، وكثرت صفاته وأحداثه وظهر العديد من أعلامه لكن كيف وُظف؟ وعلى ما دل كل نمط من خلال هذه الأمثلة؟

تنحو العناوين الدالة على الزمن "العشق و الموت في الزمن الحراشي" و"زمن النمرود" أكثر من غيرها نحو رسم خارطة الصراع الطبقي كما هو حاضر في البلاد إلى درجة أنها تتخذ طابعا تقريريا تسجيليا (...) بوصفها مشروعا للكادحين المستغلين (بفتح الغين)»[5]. فعنوان "العشق والموت في الزمن الحراشي" يتناص مع "الحب في زمن الكوليرا" لغابريال غارسيا ماركيز، ويوحي بالتناقض الموجود في المجتمع، أي اجتماع العشق مع الموت، إن العشق رمز للتعلق بالحياة والتشبث بحبالها، وإن كان الموت مطاردا لها فهذا العنوان رمزي يوحي بحال الجزائر في هذه الفترة و كثرة فئاتها و تباين رؤاهم حيث أصبح المجتمع مليئا بالمتناقضات. أما "زمن النمرود" فهو عنوان صارخ طافح بالشعرية، يشي بالكثير عن حال الجزائر حيث وظف الكاتب رمزا من رموز الجبروت والطغيان، إنّه النمرود حاكم بابل في العراق زمان بعثة إبراهيم عليه السلام، هذا الذي ادّعى النبوة فكانت نهايته بأضعف جند الله، بذبابة دخلت أذنه وبقيت معه سنين حتى قتلته. وكأنّ الكاتب يقول زماننا ـ في تلك المرحلة ـ زمن الادّعاءات الكاذبة من شعارات وخطب مزيفة وفي المقابل من خلال هذا العنوان يدعو للنهوض والتغيير، لأن من أفسدوا كالنمرود يمكن التخلص منهم بسهولة، فهذا العنوان إذن يصف الوضع ويدعو إلى تغييره.

أما العناوين الدالة على المكان، فهي في الطرح ذاته، فالمكان عموما هو الجزائر، جزائر هذه الفترة، فترة التهميش والحقرة والضياع والتناقض والكذب، إنها الجزائر التي تحتاج إلى دليل يرشدها وينقذها، فكان هذا الهاجس الذي تعالجه رواية "الحوات والقصر" للطاهر وطار، فاختيار هذا العنوان المستفيد من التراث الشعبي موح، فالحوات هو أحد أبطال هذه الرواية واسمه "علي" ولهذه الشخصية كل صفات النبل والخير لدرجة أنّه أصبح وليا في منطقته، وعليه فا لحوات رمز للطبقة الشعبية المنقذة للجزائر والقصر هو الجزائر لأن الحوات حاول إنقاذ القصر، وكان له ذلك، فالكاتَب يقول إن الحل بيد الشعب لأن من عليها ضلوا واحتقروا شعبهم. يقول نضال الصالح في هذه الرواية: «وتتابع رواية "الحوات والقصر" ما دأبت عليه النصوص الروائية السابقة في الكشف عن الوعي الناقص بمعنى السلطة السياسية، فالسلطان ورجاله بمنأى دائما، عن مشاكل القرى السبع جميعا ونظرة قصره إلى الرعية هي نظرة إلى الماشية والطيور والخنافس والدواب".[6]إن العنوان إذن ثنائية تدل على الترتيب: الشعب والجزائر.

إذا كانت العناوين الدالة على الزمن تعبر عن زمن تلك الفترة والدالة على المكان تصف ذلك المكان وما يعانيه. فما دلالة العناوين الدالة على الأسماء (أعلام أو حيوانات)؟ هذا ما سنتبينه من خلال روايتي "الجازية والدراويش" و"الخنازير".

أول ما يلفت انتباهنا في عنوان" الجازية والدراويش" هو شبهه من عنوان رواية "الحوات والقصر" فكلاهما يعبران عن ثنائية، ويكمن الفرق فقط في أن الثانية تدل على مكان، بينما الأولى فتجمع بين أعلام. فـ"الجازية والدراويش" "استثمار للأسطورة والمخيلة الشعبية في بناء ما يسعى إلى مغادرة خطية البناء الروائي التقليدي، هكذا استحضر من التراث السردي الشعبي صدى "الجازية" في تغريبة بني هلال، وعجن الجازية الروائية من الفتنة نفسها، ومن الذكاء والحزم والغموض والزئبقية، وأطلقها في فضاء قرية بين عشاقها ... ونحن إذن في لجة ما طرأ في الجزائر المستقلة"[7] إنّه الهاجس نفسه؛ وجوب التغيير والنهوض، فـ"الجازية والدراويش" عنوان رمزي كذلك فالجازية هي الجزائر والدراويش هم من يدعون عشق الجزائر ويلتفون حولها، ويستفيدون من

خيراتها و يتصارعون لأجلها، لأن الجزائر وقعت في صراع بين القدماء المحافظين والمحدثين الجدد،فكانت الضحية هي الجزائر، فالعنوان رمزي غير مباشر يتكون من ثنائية هي على الترتيب: الجزائر والمختلفين فيها، فالجزائر موجودة دائما، ولو اختلفت مدلولاتها، فهي القصر، وهي الجازية لكن الراهن واحد.

أما عبد المالك مرتاض فاستعار لروايته اسم حيوان فوسمها بـ"الخنازير" ومثل هذا العنوان لا يمكن القول فيه إلا أنه رمز للفساد والتهديم، إنه عنوان يلتقي دلاليا مع عنوان "زمن النمرود" فكلاهما يشخصان المسيّر والحاكم والمسئول. إن رواية "الخنازير" ومن خلال عنوانها قد «حمّلها الروائي شُحنات تعكس مواقف مما يحدث، إنها تنطلق من أساس فكري وحضاري وتكشف عن قراءة جمالية للواقع، إنها قراءة بعيدة عن الانجذاب الإيديولوجي الفج والبهرجة السياسية، فالخنازير من الحيوانات التي ارتبط وجودها بالإفساد والتهديم، فكشفت بذلك حقلا دلاليا سلبيا."[8] وتوظيف أسماء الحيوانات عادة عنوانية اشتغل عليها الكثير من الروائيين لما وجدوا فيها من دلالات تشفي غليلهم كالبغل " عند وطار" و "الكلب" عند جيلالي خلاص فهي سبل يجنح إليها الروائي حين يريد التلميح لا التصريح و حين يريد حماية نفسه من الاكسلنس أو مقص الرقيب، و هذه خاصية نجدها في العناوين غير المباشرة، وهذا ما نجده في العناوين الدالة على وصف أو حدث نحو "المضطهدون" للهاشمي سعدون أو"الشياطين" لاسماعيل غموقات. فالعنوانان يشكلان ثنائية هي على الترتيب المحكوم والحاكم. وعليه فعناوين هذا النمط تصف حال الرعية مع راعيها.

وبهذا نرى تباين الأنماط العنوانية في هذه المرحلة ـ مرحلة نهاية الاشتراكية في الجزائر وانقلاب مبادئها ـ تباينا معللا فالمكان دائما الجزائر، والزمان دائما نهاية الاشتراكية وتدهور الأوضاع، والأسماء تدل على الشعب أو الحاكم، والصفات للشعب المسلوب الحقوق، المهمش أو حاكمه ممّن جعل الاشتراكية انفرادية.

المرحلة الثانية (1987-2000):

مرض رئيس الجزائر "هواري بومدين" والجزائر على فوهة بركان من رفض للاشتراكية وبحث عن الليبرالية، كما تزامن موته مع الثورة الإسلامية في إيران، وجاء

"الشاذلي بن جديد" وبدأ ينمو فكر المعارضة في الناس، خاصة المعارضة السياسية الإسلامية، ومع النظام الجديد الذي أظهر علانية التخلص من الاشتراكية، ومن كل من ينادي بها من قريب أو بعيد، فمن أولوياته محاربة الفكر الاشتراكي وتحطيم الاقتصاد العمومي تحضيرا للخوصصة، فلم يجد النظام أحسن وسيلة للقضاء على اليساريين خاصة في أوساط الطلبة كتشجيع الحركة الإسلامية، والسماح لها بالنشاط بكل حرية."[9] لكن (...) وللأسف بعد نهاية الثمانينات انقلب الحال و بان المحال، حيث دخلت الجزائر في ليل حالك، وأصبح الناس حراسا للنوايا، فاتخذ البشر صفة الألوهية، فعاشت الجزائر مراهقة فكرية، مات فيها من مات وفر فيها من فر، وكُفّر فيها من كفّر. و في كل هذه الأحداث كان المثقف الذي يرى الحدث بعين لا يمكن لأحد غيره الرؤية بها مهددا بالقتل، ومتّهما بالكفر، وعليه فهذا الراهن ـ راهن الإرهاب في الجزائر ـ كان صداه كصدى الثورة فتمخضت من أحداثه ومجازره روايات كثيرة ، فقال واسيني الأعرج "سيدة المقام"، وقال مرزاق بقطاش "دم الغزال"، وقال عز الدين جلاوجي "الفراشات والغيلان" وقال"واسيني الأعرج أيضا "فاجعة الليلة السابعة بعد الألف"، وقال"جيلالي خلاص" "زهور الأزمنة المتوحشة"، وقال بوجدرة "تيميمون"، وقال الطاهر وطار"الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"، وقالت شهرزاد زاغز"بيت من جماجم"، وقال بشير مفتي "المراسم والجنائز"، وقال عز الدين جلاوجي "سرداق الحلم والفجيعة"، وقال وطار "الشمعة والدهاليز".

إنها عناوين كثيرة لروايات تمخضت من هذه الفترة السوداء، هذه الفترة التي عاشها الناس في ضيق نفسي، وحبس الشباب في كبت ويأس لما عانوه من حرمان وتحريم، خاصة وشباب هذه المرحلة كان يسمع عن جزائر الأمن، كان يسمع عن تمتع الناس بأرض الجزائر بكل ما تحمله من بهاء وجمال. لكن حين وصل زمانه لا يسمع إلا كلمة "احذر"!!!! *إنها المراهقة الفكرية حقا.*.

لذا فكل عنوان اختاره الروائيون لمتونهم يحكي الراهن ويجسد السواد ويصف الموت.إن هذه المرحلة لا تختلف عن المرحلة السابقة في حاجتها للأنماط كلها، فالعنوان الدال على

الأسماء أعلاما كانت أو حيوانات مطلوب وبكثرة. خاصة أسماء الحيوانات وما تحتويه من دلالات. أما الدال على الزمان فأي زمان يحتاج الوصف في الجزائر مثل هذا الزمن؟

أمّا الدال على المكان، والدال على أحداث أوصفات؛ وهل ترك الإرهاب للناس شيئا يصفوه غير جرائمهم وأحكامهم؟ وعليه فكل الأنماط موظفة من لدن الروائيين.ومن العناوين الدالة على الأسماء "سيدة المقام"، "دم الغزال"،"الفراشات والغيلان"، فـ"سيدة المقام" عنوان مركب تركيبا إضافيا يدل على اسم، وهو عنوان يحتاج من القارئ مطاوعة وبعد نظر، حيث "تتقدم رواية سيدة المقام" إلى الحداثي في استثمار الفنون من لوحات محمد خدّة إلى رقصة شهرزاد إلى باليه البربرية، ومن غناء عبد الغفور وعبد المجيد مسعود، إلى موسيقى سترافنسكي وتشايكوفسكي ... ومريم التي يسمها حراس النوايا (حراس الإيمان وفقهاء الظلام) بالشيوعية، ويرمون رأسها برصاصتهم في يوم الجمعة الحزينة لتدع الروائي العاشق الأستاذ الجامعي غارقا في بحر الدم الجزائري، ومشبوحا بين القتلة وسلطة بني كلبون».[10] إنها رواية تحكي الإرهاب في الجزائر، تحكي قتل الإرهاب للفن والإبداع، وهي رواية تحوي العديد من الرموز "حراس النوايا، بني كلبون، حراس الإيمان، فقهاء الظلام" وهي رموز تصب في حقل دلالي واحد، إنّه التعريض بالإرهاب وتجسيد حقيقته، فكل ما في الرواية يقول إنّ الإرهاب قتل كل جميل وكل بديع لذلك جاء العنوان موحيا بالجمال لكنه الضائع، إنها سيدة المقام رمز للفن والإبداع الذي حورب من لدن الإرهاب، ووضع في خانة الظلال، والأستاذ الجامعي رمز المثقف المضطهد المثقف الذي سلبوا منه إبداعه وفنه، وأقحموه في سيول الدم والإجرام وحاصروه وألجموه. وفي الحقل نفسه تدرج رواية مرزاق بقطاش "دم الغزال"، فهذا عنوان صارخ طافح بالشعرية تكاد تتفجر دلالاته لتقول عن المر والعلقم، عنوان مركب تركيبا إضافيا "الدم"، و"الغزال"، "الدم". لفظة توحي بالموت، والقتل، والحزن والإجرام، و"الغزال" اسم حيوان ولفظه يوحي بالدعة والجمال والصفاء والنقاء، وباللفظتين نقول "قتل الجمال والصفاء" وهذا كله إسقاط على الراهن المرير في الجزائر، إنّه الإرهاب يقول محمد ساري عن هذه الرواية إنها رواية "اعترافات صادقة ومؤثرة لكاتب عايش الموت عن قرب ... وليس الغزال إلا بقطاش مرزاق بحساسيته المفرطة

وضعفه وطيبته التي ترى الخير في الإنسان دون الشر"،[11] وعليه فهذا العنوان رمزي غير مباشر استعار الروائي الحيوان ليستثمر صفاته وإيحاءاته للتعبير عن مكنوناته.

أما بالنسبة للعناوين الدالة على الزمان نذكر "فاجعة الليلة السابعة بعد الألف" لواسيني الأعرج و"زهور الأزمنة المتوحشة" لجيلالي خلاص، فعنوان "فاجعة الليلة السابعة بعد الألف" يحاكي التاريخ ويتناص مع حكاية "ألف ليلة وليلة". وهذا نمط سلكه العديد من الروائيين نحو "ألف ليلة وليلتان" لهاني الراهب، 1977، و"ليالي ألف ليلة" لنجيب محفوظ، 1982.[12] ولعودة هؤلاء الروائيين للتاريخ مبرراته. يقول عمر بلمقنعي "إن الهزائم المتتالية التي قصمت ظهر الأمة العربية جعلت المثقفين العرب يشعرون بخيبة أمل مريرة، لما تتصف به هذه الهزائم من تكاثر، فهي هزائم ثقافية وسياسية وعسكرية إنها هزائم حضارية شاملة، ومن ثم أدركوا أن العودة إلى التاريخ ضرورة لابد منها، وبات استنطاق التراث حاجة ملحة، فاستنطقوه، وسألوه وساءلوا معه الذات العربية وسبروا أغوارها، ومكان قوتها وضعفها، إنهم فتشوا في الماضي انطلاقا من الحاضر، فوضعوا أيديهم على مكمن الداء المؤلم (...) وانطلاقا من المفهوم جاءت رواية "فاجعة الليلة السابعة بعد الألف" لواسيني الأعرج محاولة إكمال الحكاية، وكشف المسكوت عنه."[13] وعليه فعنوان واسيني الأعرج ذو النمط الدال على الزمن، وإن كان استحضارا للتراث العربي فهو يصف زمانا رديئا، وخير لفظ يوحي بذلك في العنوان هو لفظ "فاجعة"حيث كانت هذه الفاجعة في ليلة معينة؛ إنها الليلة السابعة بعد الألف، وهذه ليلة «تسرد الرواية وما حدث فيها يشبه إحدى ليالي ألف ليلة وليلة، من حيث كونها تضم حكايات كثيرة"،[14] فاختيار هذه الليلة رمزي يمكن تأويله بفاجعة أيام الجزائر فهي تشكل حلقة متصلة مع التاريخ، وما استحضار التاريخ إلا مطية عازها الروائي ليخبر عن الفاجعة ويناشد الأصل والهوية ويدعو للرجوع إلى الذات العربية، فالعنوان يندب الراهن في الجزائر.

إذا كان الدال على أن العنوان ذو النمط الزماني في رواية "...الليلة السابعة بعد الألف" هو لفظ "الليلة" فإنّ الدال عليه في عنوان "زهور الأزمنة المتوحشة" لجيلالي

خلاص، هو عبارة "الأزمنة المتوحشة"، وهذا عنوان رمزي استعار فيه الروائي لفظة "زهور" وهذه اللفظة في الغالب توحي بالحياة، وبمرحلة الشباب، وتوحي بالنضج والإرادة والمستقبل، وهذه الصفات كلها طمرت لأنها تعيش في زمان يكره الحياة ويقتل الجميع.

فهذه الإسقاطات كلها تنسحب على زمان الجزائر الذي صار متوحشا بسبب حراس النوايا وفقهاء الظلام، وعليه فالعناوين الدالة على الزمان تصور فترة سوداء في تاريخ الجزائر وتشخص ما جرى في هذا الزمان من اضطهاد وكبت للإبداع والمبدعين.أما العناوين الدالة على المكان فنذكر منها "تيميمون" لرشيد بوجدرة، و "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" للطاهر وطار، فـ"تيميمون" عنوان يستفز القارئ، حيث تحضره قراءات كثيرة، فهل تيميمون وظفت توظيفا حقيقيا؟ وهل الرواية تحكي عن هذه المنطقة؟ أم إن العنوان رمزي أريد به معنى آخر؟

يقول مخلوف عامر عن هذه الرواية مبينا مناسبتها "تيميمون الرواية جولة طويلة عبر الصحراء الشاسعة، رحلة وسط الرمال الصفراء والسماء الصافية بحيث لا يبقى سوى الكاتب مع هواجسه وحواراته الداخلية، وهي عادة "بوجدرة" في كل ما كتب أن يطلق العنان لتيار الوعي، فتتلاحق التداعيات تغرف من ينبوع الحب والطفولة والذكريات الحلوة والمرة، وذكريات العشق والحب والكره والغيرة، وغيرها من المسائل الذاتية واللاذاتية التي يتركها "بوجدرة" تفيض كالسيل.إنّه وسط الصحراء، بعيد عن صخب الإرهاب، وما يحدثه من رعب، ولكن أنّى له أن يبتعد وأخبار الموت تصله مسموعة ومكتوبة.[15] وعليه "تيميمون" المذكورة في العنوان حقيقة حيث تدل على مكان في صحراء الجزائر، والروائي كان هناك مع نفسه، ومع تداعياته، أين يجتر ماضيه، لكن هذه التداعيات توقفت لأنها واجهت عقبات فرضت نفسها على تداعياته، وهذه العقبات تتمثل في الجرائم الشنيعة التي قام بها الإرهاب، حيث قتل الأستاذ بن سعيد أمام ابنته، واغتيل صحفي فرنسي وانفجرت قنبلة في مطار الجزائر العاصمة خلفت تسعة قتلى وأكثر من مائة جريح، قتلت شغالة في السادسة والأربعين من عمرها، وهي أم لتسعة أطفال، قتل الكاتب الكبير الطاهر جعوط وهو يصطحب ابنته إلى المدرسة، ذبح اثني عشر كرواتيا بطريقة وحشية قرب المدية، وآخر جريمة سردها رشيد بوجدرة هي حرق مدرسة ابتدائية بمدينة البليدة.[16]

يعترف بوجدرة في هذه الرواية الموسومة بـ "تيميمون" بأن الإرهاب في الجزائر حتمية تفرض على الإنسان الحديث عنها، ولعل تيميمون تمثل السكون وراحة البال لكنها لم تستطع أن تنعزل عن ما يحدث في الجزائر، فالجزائر كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. و"تيميمون" جزء من الجزائر ورشيد بوجدرة اتخذها ملاذا، لكنّ سقفها لم يقه سماع جرائم الإرهاب، وعليه فالمكان هو الجزائر وما يحدث فيها من مجازر، وإن كان الحديث عنها من مكان آخر يمثل جزءا منها فالهاجس واحد.

أما عنوان "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" فهو عنوان طويل مقارنة بالعنوان الماضي، لكنه ذو نمط مكاني أيضا، وإنّا لنشم منه رائحة الشطحات الصوفية، ولعل أهم سمة في العنوان تتمثل في عودة الولي الطاهر، فمن أين عاد هذا الولي؟ وأين كان؟ وهل في العنوان زمن ما ؟

يقول نبيل سليمان عن مضمون هذه الرواية «لقد ابتدأ الطاهر وطار من حروب الردة، فيما صدر به الرواية، ومضى ببطله الولي، وما يستدعيه رغم التخييل من السيرية من صحبة خالد بن الوليد إلى الحرب في الأصقاع المعاصرة، أفغانستان والقاهرة والأقصر ... وصولا إلى حي الرايس في الجزائر، وكان التقمص والتوحد عتلة الرواية، يصنع شخصياتها وأحداثها وليس فقط الولي الذي تتوجه أخيرا رشاشته و نقداته إلى القتل".[17] يظهر من مضمون الرواية أن "الولي" سافر عبر التاريخ العربي أو استحضر التاريخ، ولاستحضار التاريخ ومناجاته أو محاورته أو مساءلته مبرراته عند المبدعين، وقد أشار البحث لذلك في عنوان "فاجعة الليلة السابعة بعد الألف" لواسيني الأعرج، فسفر "الولي" عبر التاريخ يوحي بالحيرة والبحث عن المساعدة. حيث وقف عند محطات بارزة في التاريخ العربي، فوجود خالد بن الوليد، رمز للانتصارات العربية، والقوة والقدرة على حل الصعوبات، واتخاذه كصديق دعوة صارخة للبحث عن مثيل له يرجع للإسلام والمسلمين وحدتهم وقوتهم، فخالد بن الوليد في هذه الرواية حلم ضائع، لأنّ كل محطة وقف عندها "الولي" وجد فيها الضعف والتقهقر والتشتت والضياع، و صولا إلى محطته الأخيرة وهي المحطة التي انتقل منها ولأجلها ليبحث لها عن مساعدة ونجدة، إنها الجزائر سواء كان حيا فيها "حي الرايس" أو

مدينة أو غيرها، المهم أن المقصود بالمكان الذي يدل عليه العنوان "المقام الزكي" هو الجزائر هذا البلد الذي طوقه الإرهاب في هذه المرحلة، وما الولي إلا صوت الشعب، أو صوت المثقف الذي يبحث عن التغيير والتطهير وهذه صفات تميز بها الولاة الصالحون.

ومنه يمكن أن نقول إن "تيميمون" لرشيد بوجدرة تلتقي ضمنيا مع "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" فإن كان "رشيد بوجدرة اتخذ "تيميمون" ملاذا يبعده عن الوضع الراهن في الجزائر من إرهاب، وإجرام، لكنه فشل ووجد أن الإرهاب حتمية يجب التعامل معها والدعوة لتغييرها؛ فوطار، وإن كان هو "الولي"، أراد مناجاة التاريخ والبحث فيه لكنه أخيرا اصطدم بالواقع المر والمكان الأسود من الإجرام، والإرهاب، ووجد أن هذا الحال متأصل في تاريخ الإسلام والمسلمين، وعليه فالعناوين الدالة على المكان دائما تحكي الإرهاب في هذا المكان، وما فعله فيه والمكان دائما هو الجزائر.

أما العناوين الدالة على وصف أو حدث فنذكر منها "المراسيم والجنائز" لبشير مفتي و"الشمعة الدهاليز" للطاهر وطار.فعنوان "المراسيم و الجنائز" يجعل القارئ يخمن في حقل دلالي يومئ بالحزن والكآبة، فهو عنوان مركب يشتمل على لفظتين؛ لعل معنى الأولى محدد بمعنى الثانية، لأنّ المراسيم تكون للفرح، وتكون للحزن، لكن الحدث البارز هنا هو الحزن، ويتضح ذلك من خلال لفظة الجنائز، أي إن هذا الحزن كثير ودليل ذلك صيغة منتهى الجموع التي صيغت بها اللفظتان، وعليه فالوصف الموجود في هذا العنوان هو لحدث يتمثل في الإرهاب، وما تسبب فيه من حزن وكآبة فالمراسيم والجنائز "شهادة على واقع وشهادة على حضور ذات معذبة ومتميزة في رؤيتها وعذابها وفي تعاملها مع الشخصيات التي تتحرك على الرقعة الروائية، وهي تجسد في وجه من وجوهها محنة المثقف وتترجم أيضا ثقافة الوطن الممحون"،[18] أما عنوان "الشمعة والدهاليز" للطاهر وطار فيومئ بالتناقض والجمع بين المتناقضات في عناوين الطاهر وطار سمة فارقة، فقد وجدنا ذلك في رواية "العشق والموت في الزمن الحراشي"، فهذه طريقة يجنح إليها الروائي حين يصف الراهن حيث يذكر الطاهر وطار في مقدمة "الشمعة والدهاليز" أن وقائع الرواية تجري قبل انتخابات 1995 التي خلقت ظروفا أخرى لا تعني الرواية في هدفها الذي هو التعرف على أسباب الأزمة و ليس على وقائعها،[19] فهذا العنوان يختزل أسباب

الأزمة، لأنّ الشمعة وهي رمز للنور والنور صفة ارتبطت بالعلم، والعلم سمة المثقف، والمثقف سبيل الإصلاح والتغيير، وهو عادة قليل في المجتمع، لذلك جاء لفظ الشمعة مفردا والجهل كثير لذلك جاء لفظ الدهاليز جمعا فهذا المثقف وسط عتمة وجهل وظلم وكبت ودليل ذلك لفظ الدهاليز فهذا لفظ مفرده دهليز وهو لفظ معرب من الفارسية يوحي بالظلام والعتمة.فالعنوان إذن رمزي يصور الحدث في الجزائر ويصفه.

نستنتج من كل ما سبق أن عناوين الفترة الممتدة من 1987 إلى 2000 على تنوع أنماطها تنقل الراهن وتحكي الإرهاب، فأسماء الأعلام أو الحيوانات في العناوين تقصد الإرهاب أو المتضرر منه، والعناوين الدالة على مكان تختص بالحديث عن الجزائر وما تعانيه من هذا الإرهاب، والدالة على زمن تندب فترة الإرهاب، وتبحث عن خلاص فتناجي التاريخ وتبحث عن البديل، لكن الزمان دائما زمان القتل والإجرام، أما الدالة على حدث أو وصف فهو وصف لجرائم الإرهاب ووصف للحالة التي آلت إليها الجزائر فالإرهاب إذن في هذه المرحلة يفرض نفسه في إبداع الروائيين ويحرك دلالات العناوين على اختلاف أنماطها.

وفي الأخير ومن خلال هذا الرصد الخاص بالعناوين الروائية باعتبارها نصوصا نستنتج ما يلي:

- وجود الأنماط العنوانية نفسها.
- تعبر العناوين عن الراهن :سياسي، فكري، اقتصادي، اجتماعي...
- كثرة العناوين الرمزية غير المباشرة.
- هيمنة العناوين القصيرة .
- تجنب العناوين المسجوعة.
- الإكثار من العناوين ذات التركيب الإضافي والجمل الاسمية.
- توظيف أسماء الحيوانات كرموز (البغل، الخنزير، الغزال، الكلب...)
- الاستفادة من التاريخ والتراث الشعبي ("الجازية، الدراويش"، "ألف ليلة وليلة" "الحراشي"، "النمرود"، اللونجة، الغول).
- استعمال اللغة الدارجة في المجتمع (خويا دحمان، عزوز الكابران ...)

- الجمع بين المتناقضات (العشق والموت، الشمعة والدهاليز...)
- قصدية العنوان واختزاله للمتن الروائي.

وعليه فإنّ هذا الزخم من العناوين يحتاج إلى أرضية خصبة تحتضنه، ولعلم دقيق، سمته المنهجية العلمية والتوجه الواعي يقننه ويضبطه، لأنّ العناوين في الرواية الجزائرية أثبتت حقيقة أنها ظاهرة فنية.

الإحالات:

(1)- مخلوف عامر: الرواية والتحولات في الجزائر (دراسة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية) منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا،2000، ص 18.

(2)- محمد ساري: محنة الكتابة،(دراسات نقدية)منشورات البرزخ، ماي 2007، ص 55.

(3)- مخلوف عامر: الرواية والتحولات في الجزائر، ص ص20-22.

(4)- محمد ساري: محنة الكتابة،صص 55-56.

(5)- مخلوف عامر: الرواية والتحولات في الجزائر، ص 26.

(6)- نضال الصالح: النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا،2001، ص ص80، 81.

(7)- نبيل سليمان: جماليات وشواغل روائية، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2003، ص57.

(8) - محمد تحريشي: أدوات النص، منشورات إتحاد الكتاب العرب– دمشق– سنة 2000 ص 114.

(9)- حمد ساري : محنة الكتابة، ص 60.

(10)- نبيل سليمان: جماليات وشواغل روائية، ص 67.

(11)- محمد ساري : محنة الكتابة، ص 119.

(12)- نضال الصالح: النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، ص 65.

(13) - عمر بلمقنعي: إستراتيجية الاستلهام في انفتاح النص الروائي "رمل المايا" أنموذجا، مجلة التبيين، ثقافية محكمة تصدر عن الجمعية الثقافية الجاحظية، العدد 26، 2006، ص49.

(14)- محمد رياض وتار: توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2002، ص 70.

(15)- مخلوف عامر: الرواية والتحولات في الجزائر، ص 90.

(16)- المرجع السابق، ص ص 91، 92.

(17)- نبيل سليمان: جماليات وشواغل روائية، ص 61.

(18)- مخلوف عامر: الرواية والتحولات في الجزائر، ص 87.

(19)- سلمى محمد سعد: الثورة الجزائرية في روايات الطاهر وطار (من الخمسينيات حتى مطلع التسعينيات) رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية– بيروت– لبنان، 2000، ص 117.

Cette étude vise à observer le phénomène des titres, comme seuil textuel et signe linguistique dans le roman algérien, et à montrer l'étendue du poétisme de ces titres, et leur relation étroite avec la situation politique dont ils résultent, comme le montre cette L'étude surveille les titres de romans, depuis la période post-indépendance jusqu'en l'an deux mille. Puisque cette période a apporté des changements qui ont affecté la forme du roman et son contenu, nous l'avons à notre tour divisé en deux étapes : La première commence à partir de la période post-indépendance, se terminant en 1986, tandis que la seconde commence de 1987 jusqu'à l'an 2000. Nous nous efforcerons d'examiner les caractéristiques de chaque étape, révélant la relation entre la dimension politique et le style de discours.